الزاوية التجانية – باب الخضراء تونس

الإمام الخطيب – الحاج الحبيب بن حامد

**مدح الضحك والتبسم**

﴿ الخطبة الأولى ﴾

يوم الجمعة 17 ربيع الثاني 1437 هـ / 6 فيفري 2015 م

الحمد لله،

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، نستهديه ونثني عليه الخير كلّه نشكره ولا نكفره. عمّ برحمته جميع العباد وخصّ أهل طاعته بالهدى والسّداد ووفّقهم للأعمال الصالحات بعد صالح النيّات ففازوا في الحياتين ببلوغ المراد.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ سيّدنا ونبيّنا محمّدا عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله،

من يطع الله ورسوله فقد رشد واهتدى ومن يعصي الله ورسوله فقد غوى واعتدى ولا يضرّ إلاّ نفسه ولا يضرّ أحدا.

خطبة اليوم في حسن الخلق، في جانب خاص من حسن الخلق، كم نحن محتاجون إليه في عصرنا هذا وفي بلدنا هذا وفي وقتنا هذا.

نتحدّث اليوم إخواني على قوله صلّى الله عليه وسلّم « تَبَسُّمُك فى وجه أخيك صَدَقَةٌ »[[1]](#footnote-1)، هذا الحديث الصحيح يعلّمنا أنّ التبسّم، الذي هو حركةٌ في الوجه بسيطة لا تكلّف صاحبها مشقّةً ولا مالاً، هذا التبسّم هو عبادة ينجرّ عنه الحسنات في كتاب فاعله فتُكتب له صدقة. فمن كان لا يستطيع أن يتصدّق بالمال، أو لا يريد أن يفعل فليتصدّق بالتبسّم وبسط الوجه للآخرين.

يقول رسول الرحمة ومنقذ الأمّة ومزيل الغمّة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم « إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَلْيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الوَجْهِ، وَحُسْنَ الخُلُقِ »[[2]](#footnote-2).

وعكس الابتسامة هو التكشير أو العبوس قال تعالى في سورة الإنسان ﴿ نَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا \* فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾[[3]](#footnote-3)، وقال تعالى ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾[[4]](#footnote-4)

عبس : قطب وجهه

عبوسا : تكلح فيه الوجوه لهوله

لقاهم نظرة : أعطاهم حسنا وبهجة في الوجوه

فالإبتسامة ممدوحة، ممدوح ومثاب صاحبُهاَ والتكشير والتعبيس مذموم شرعا وعرفا (ما تعارف عليه الناس)

« لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ » لا تتسع أموالكم لعطائهم فوسعوا أخلاقَكُم لصُحبتهم.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة نذكر منها قوله صلّى الله عليه وسلّم لمذا سُئل عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة فَقَالَ « تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ »[[5]](#footnote-5)، وقوله صلّى الله عليه وسلّم « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ »[[6]](#footnote-6) وقال « ماَ مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ »[[7]](#footnote-7).

إذا لمّا كان الأمر بهذا الوضوح وهذه الأهميّة لمذا نجد العكس هو المسيطر على حياتنا اليوميّة في مجتمعنا ؟

لماذا تغيب البسمة في غالب الأحيان فنجد الوجوه كاحلة، آيسة، الجبين مقطّب، والحاجب معقد، في المنزل، في المتجر، في الشارع، في الإدارة، في المسجد، حتّى في صفّ الصّلاة، في كلّ الأماكن والأوقات.

1. هماك من يقول أن سرعة الحياة والقلق والتوتّر هو المانع لنا من التبسّم، فكيف نبتسم والمسؤوليات كبيرة والقلوب مهمومة والعقول مشغولة؟
2. وهناك من يقول أن التبسّم ينفي الجديّة والوقار
3. وهناك من يعتقد أن التبسّم يساوي الضحك والضحك يميت القلب.

فأمّا الجواب على المانع الأوّل، كثرة الشواغل وهموم القلب وصعاب المسؤوليات، فقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو المثقل بهموم أمّة بأكملها ومع ذلك كان يبتسم ويستعيذ بالله تعالى من الحزن ومن البؤس والتبائس وكذلك الصحابة رضي الله عنهم لهم في اللهو منهجا وطريقة.

بل أن الضحك والتبسم ليس هو صفة القلوب الفارغة أو العقول المستريحة بل هو طبع من طبائع الشخصية السوية ودلالة من دلالات الأدب والرحمة والعطف، قال عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ يَقُولُ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[[8]](#footnote-8).

وكان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعوات لا يدعهنّ كان يقول « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ »[[9]](#footnote-9)، فكان صلّى الله عليه وسلّم يبتسم ويجتهد أن يلاقي أحبابه بهذا الوجه الكريم وفي نفس الوقت يطلب من الله تعالى أن يعينه على التغلّب على الحزن والعجز والكسل الخ، التبسّم هل هو مكتسب أم فطري؟

وأمّا الجواب على من يقول أن التبسم والضحك ينفي الجدية والوقار وهذا يعني في رأي أصحابه أن العبوس والحزن هو دليل على النضج وكأن البسمة هي خطيئة لا يجدر بالمرء إعلانها أو قيمة تَهْلَكُ بإخراجها.

يقول أحد علماء النفس « إنّ الابتسامة لا تكلّف شيئا ولكنّها تعود بالخير الكثير، إنّها تغني أولئك الذين يأخذونها ولا تفقر أولئك الذين يمنحونها إنّها لا تستغرق أكثر من لمح البصر لكن ذكراها تبقى إلى آخر العمر، إنّها راحة للمُتْعَب وشعاع الأمل للبائس وأجمل العزاء للمحزون (Deal Carendji)

فما كان التبسم أو الضحك أبدا منقصة للرجول بل دلالة على رقّة القلب وعظيم النبل وثبت عن الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يضحك حتى تظهر نواجذه،

عَنْ عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْخَلَائِقَ عَلَى إِصْبَعٍ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ثُمَّ قَرَأَ { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }[[10]](#footnote-10)

وأمّا الجواب على المانع الثالث، وهو أن الضحك يميت القلب استدلالا بقوله صلّى الله عليه وسلّم « وَلَا تُكْثِرْ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ »[[11]](#footnote-11) فهذا أمر معتبر فيه الإكثار لا عدم الضحك أصلا. وإنّما الإكثار منه يخرجه عن المراد منه وهو ما ذكرنا سابقا من الرحمة والرقة والألفة والتودّد إلى بعضنا البعض. فكثرة الضحك ككثرة الدعابة وككثرة المزاح تذهب بالمروءة وتحمل الناس على الاستهانة به والاستخفاف بأقواله وأفعاله.

فالتوسّط يبقى لبّ الفضيلة وسلاح العقلاء والاسراف في كلّ شيء أمر منهيّ عنه كالاسراف في الحزن أو في الفرح أو في الكآبة أو في النوم أو في الأكل، كلُّهُ مكروه مذموم.

إخواني، أيها المسلمون،

غياب البسمة يرجع إلى غيوب الكآبة من جراء حركة الحياة السريعة وصعوباتها ولكن نحن المسلمون، إيماننا قوي، المسلم بشوش الوجه لا تهزمه النائبات ولا المصائب ولا تجبره تقلبات الحياة على تقطيب جبينه ولا التجهم.

وهذه منفعة عظيمة فلتعملوا بها فإنّ فيها حسنات عظام وفيها حسن الخلق وقوة الإيمان بالله وفيها الرضى بقضائه وقدره وفيها منافع دنيوية كثيرة نذكر أهمها ولا نطيل بها،

كمنفعتها في التجارة مثل صيني « شخص لا يبتسم لا يصح له أن يفتح متجرا »

ومنفعتها في سعادة الأطفال ومنفعتها في تسهيل تلقي العلم المدرسي أو الديني أو أي علم يدرس ومنفعتها الطبية في تقوية المناعة وتقليص التوتر وآلام الجسم ومنافعها الاجتماعية في المؤسسات والإدارات وأنّ الأجواء المرحة في العمل تزيد الانتاج وتقلل من ضغوط العمل وغيره من المنافع التي ليس هذا مجالها فلنعمل حفظكم الله بقول معلّمنا صلّى الله عليه وسلّم « إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَلْيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الوَجْهِ، وَحُسْنَ الخُلُقِ ».

اللهمّ وفقنا إلى ما تحبّ وترضى يا كريم يا ودود ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

1. عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم « إِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فى إناء أخيك صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وتَبَسُّمُك فى وجه أخيك صَدَقَةٌ وَإِمَاطَة الْحَجَر وَالشَّوْك وَالْعَظْم عن طريق الناس صَدَقَةٌ وهدايتك الرجل فى أرض الضالة صدقة » البيهقي في شعب الإيمان والسيوطي في الجامع الكبير [↑](#footnote-ref-1)
2. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [↑](#footnote-ref-2)
3. سورة الإنسان الآية 10 -11 [↑](#footnote-ref-3)
4. سورة المدثر الآية 22 [↑](#footnote-ref-4)
5. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ فَقَالَ « تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ « فَقَالَ الْفَمُ وَالْفَرْجُ » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان [↑](#footnote-ref-5)
6. أخرجه أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها [↑](#footnote-ref-6)
7. رواه الترمذي من حديث عطاء عن أم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعا [↑](#footnote-ref-7)
8. رواه الإمام أحمد في مسنده [↑](#footnote-ref-8)
9. اخرجه البخاري في صحيح بَاب التَّعَوُّذِ مِنْ غَلَبَةِ الرِّجَالِ عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ [↑](#footnote-ref-9)
10. أخرجه البخاري في صحيحه [↑](#footnote-ref-10)
11. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا تُكْثِرْ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ [↑](#footnote-ref-11)